سلسلة المعارف الاسلامية

للناشئة والشباب

(١)

النزعة الدينية
بين الإلهيين والماديين

السيد فاضل الموسوي الجابري

تحظى إصدارات المركز

بالمتابعة والتقويم والاشراف العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة المركز

ماذا يقرأ شبابنا اليوم ؟

أو ماذا يمكنه أن يقرأ ؟

ما الذي توفَّر بين يديه من المقروءات التي يجد فيها نفسه المخاطَب الأول .. المقروءات التي تعيش مثل همومه وتطرق أبواب الفكر بمثل ما يطرقه هو ، وتبحث عن الجواب بأدواته التي يعرفها ويستسيغها ويأنس إليها .. ماذا يجد شبابنا وناشئتنا اليوم من هذا النمط من المقروءات ؟

بالرغم من تعدّد مراكز الأبحاث ودور النشر وتنامي سوق الكتاب وتعدّد أطياف المجلات والدوريات ، إلاّ أن الناشئة والشباب الذين هم الأكثر عدداً والأخطر أثراً في حاضرنا ومستقبلنا الاجتماعي والثقافي هم الأقل حظّاً إن كان لهم حظّ من هذا النتاج الواسع .. هذه الشريحة المهمة والواسعة التي نستهدفها دائماً في خطاباتنا الحماسية ، ما زلنا نهمل حقّها الثابت في خطاب علمي موجّه ومدروس ، يكتشف فيه الناشئة والشباب أنفسهم ، ويحسنوا إدراك ذواتهم ، وينفتحوا على أبواب المعارف ليطلّوا على العالم وعلى الحياة بوعي مناسب ومعرفة جديرة بتحقيق ما يطمحون إليه من تقدّم فكري وثقافي وعلمي ، سيعطي بدوره صورة المجتمع المستقبلية.

وفي عالمنا اليوم حيث التسابق العلمي الحثيث ، وحيث تشتدّ زحمة الأفكار والثقافات الوافدة عبر أدوات الاتصال الحديثة التي تيسّرت في البيوت والمجامع العلمية ، أصبحت المسؤولية أكبر ، وأصبح الدور أكثر خطورة لتعميم أدوات الوعي السليم ، وإيصال مفاتح الثقافة السليمة إلى أيدي الناشئة والشباب وهم يواجهون

الغزو الثقافي السيّال عبر الفضائيات وشبكات الاتصال الالكترونية ، التي ما زالت تخلو من خطاب إسلامي مناسب ، يستقطب أبناء هذه الشريحة ويزوّدهم بأسباب الثبات أمام هذا الغزو ومواجهته بمثل أدواته ووسائله.

ولّما كان مركز الرسالة مركزاً معنياً بالمعارف الإسلامية ، مع أولوية للأبحاث العقائدية بالمعنى الأعمّ ثمّ الأخلاقية والاجتماعية بالدرجة الثانية ، فهو يرى أن المسؤولية التي على عاتقه مهمة وكبيرة ، وأن عليه أن يسهم بكل ما يستطيع أداءه في ملء هذا الفراغ ، وفي توفير الخطاب الإسلامي المناسب لهذه الشريحة المهمة في المجتمع ، ومن هنا انطلقت فكرة هذه السلسلة ، أملاً في أداء بعض المسؤولية وتحقيق بعض طموحات أبنائنا من الناشئة والشباب.. لتجري هذه السلسلة على موازاة سلسلة المعارف الإسلامية التي صدر منها إلى الآن ستةٌ وعشرون كتاباً.

وقد جاء إصدارنا الأوّل هذا في هذه السلسلة ليطرق واحداً من المواضيع المهمة التي تشغل أفكار الشباب المتطلّع إلى العلم والمعرفة ، ثمّ هو من أهمّ الموضوعات التي تسهم في تأسيس مبادئ المعرفة الإسلامة ألا وهو موضوع الدين ، من حيث أصل وجوده في حياة الإنسان ، ودوافع هذا الوجود ، الأمر الذي يُعدّ فيصلاً بين ثقافتين ؛ الثقافة الدينية ، والثقافة المادية أو غير الدينية.

وقد تناول هذا الكتاب أسئلة هذا الموضوع الحساس بما نرجو أن يكون مناسباً لما ينتظره شبابنا وناشئتنا.

وبالله التوفيق

مركز الرسالة

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين ، سيدنا ونبينا محمد وآله الطاهرين.

وبعد ، فإنّه ما انفك الإنسان يوماً من الأيام يبحث لمعرفة الحقيقة الكونية ، فيجول بفكره آفاق الكون الواسع ، متأملاً في مظاهره وأحواله وعجائبه ، نجومه وكواكبه ، وليله ونهاره ، والكثير من خصائصه العجيبة ، ثم يهبط بنظره إلى الأرض وما فيها من الغرائب والعجائب ، من بحارها ، وأنهارها ، وأشجارها ، وثمراتها ، وحيواناتها ، وكيفية معيشتها ، وتنظيمها وغيرها من الأُمور ، ثم يرجع إلى نفسه وشخصه ، ليجد فيها من القـــدرات الكامنة والطاقات المتفجرة ، في حركة وجوده الدائبة ما يذهل العقول ويحيّر الألباب.

وأمام كل تلك المظاهر ، الكونية والأرضية والانفسية ، لم يفت ذلك الإنـــسان أن يتساءل عن الذي صنع كل هذا ودبره ، وخلقه ونظّمه ، فهل وجدت هذه الأشياء بهـــذا الاتساق العجيب صدفة من تلقاء نفسها ؟

ثم يعود مرة أُخرى إلى نفسه ويناجيها بأنواع المناجاة ، ويخوض معها حواراً طويلاً حول وجوده ، ووجود كل هذه الأشياء حوله ، فيقول لها : ما هو المصدر ؟! ولماذا أنـــا هنا في هذا الوجود ؟! والى أين سوف أصير ؟!

وبينما هو في هذه الحيرة والتفكر ، وإذا بالجواب يأتيه من أعماق نفسه ووجدانه ، بأن الصدفة مستحيلة ، فلا بد أن يكون لك ولكل هذا الكون خالق ومدبر ، فوق ما تراه من الأُمور المحسوسة ، ولا بد أنّه خلق كل هذا العالم من أجل غاية عظيمة ، وهي أنـــت أيها الإنسان ، فكل هذا العالم من أجل خدمتك وسعادتك ورقيك

ووصولك إلى الكمال المنشود ، وعلى هذا فلا بد أن يكون لوجودك ووجود كل ما حولك معنىً وحكمة ، والذي يتوجب عليك حنيئذٍ ان تبحث عن هذه الحكمة.

ثم ان العقل والفطرة تدعوان الإنسان للتأمل من جديد ليحكم بعد ذلك بحتمية ان يكون لهذا الخالق منهج وقانون يتحتم على الإنسان السير عليه ، لكونه غير شاذ عن كلِّ الموجودات الّتي حوله ، حيث يحكمها قانون الله سبحانه بدون ان تتخلف عنه أبداً ، وتحقق بذلك كمالها ، وتصل إلى حقيقتها.

(فلحبة الحنطة في مسيرها الحياتي طريق خاص بها ، وفي داخل بنيتها الوجودية ثمة انظمة وتحضيرات معينة ، تكون فعّالة في شرائط خاصة ، تعمل على جذب ما تحتاج إليه من عناصر ومواد تناسب مقدارها ، مع ما تحتاجه نبتة الحنطة في نموها ، وما تقدر على استهلاكه ، وتقودها إلى غايتها المحددة.

إن النظام الخاص الّذي يتحكم بمسير ونمو حبة الحنطة ، وسط محيط من تنوّع العوامل الداخلية والخارجية ، لا يمكن ان يتخلف أبداً ؛ إذ لم يحصل أبداً أن تغير مسار حبة الحنطة ، بعد شوط من النمو ، ليتماثل مع بيئة الحياة الخاصة ، لشجرة التفاح مثلاً ، حيث لم نشاهد ــ إلى الآن ــ حبة حنطة ، تحولت بعد جهد إلى شجرة لها جذوع وأغصان وفروع ...

وهذه القاعدة تجري في جميع أنواع الوجود ، والإنسان بدوره غير مستثنى من هذه الضابطة الكلية ، فله في حياته مسيره الطبيعي الفطري ، وغاية مقصودة تمثل سعادته وكماله ، بالاضافة إلى أنّ بنيتهُ الوجودية مجهزة بأدوات تشخص له مسيره الفطري الطبيعي ، وتهديه إلى منافعه الواقعية) [1].

إلى هنا اكتمل الشوط الأوّل من مسيرة الإنسان الفكرية والتطلعية ، فبعد أن ثبت له أن له خالقا ، وثبت كذلك حتمية وجود المنهج والبرنامج الّذي لا بد أن يسير

---

(١) مقالات تأسيسية في الفكر الإسلامي / الطباطبائي : ٨٢ ــ ٨٣.

عليه ، أخذ يبحث عن هذا الخالق وهذا المنهج.

والحق أن الإنسان عاش في دوامة كبيرة في ذلك البحث ، والتنقيب ، فقسم من الناس هداه عقله النيّر ، وفطرته السليمة فتوصل إلى الواقع ، ولكن الكثير ضلوا طريق الهداية ، وساروا بشكل متخبط في متاهات بعيدة ، وهم على قناعة في قرارة أنفسهم أنهم تائهون ضالون لم يصلوا إلى الواقع الذي يبحثون عنه ، فعبدوا الاصنام والكواكب والمظاهر الكونية وغيرها ، وكثر الفساد في الأرض ، وسالتْ الدماء ، واستُعبد الأحرار ، وانتهكت الأعراض.

كل ذلك كان في حياة البشر ، وتاريخ البشرية زاخر بألوان كثيرة من ذلك الواقع المؤلم ، ولا زالت الآثار تعطي صورة ولو مجملة عن فصول تلك المسرحية المأساوية ، بل ان واقعنا المعاصر خير دليل على همجية الإنسان المنفصل عن الله تعالى ودينه القيم.

من أجل ذلك كله ــ وغيره ــ كان لازماً على ذلك الخالق أن يبعث لهذا الإنسان من يأخذ بيده نحو طريق النجاة والسلام ، ويُعرّفه مطلوبه وهدفه الّذي يبحث عنه ، ويبرمج له حياته بكل أبعادها ، ويؤمّن له طريق الوصول إليه سبحانه ، فكان الأنبياء والرسل هم سفراء الخالق للإنسان الظلوم الجهول ، ولم يترك الله سبحانه أُمّةً إلاّ وبعث فيها نبياً أو رسولاً لهداية الناس إلى صراطه المستقيم ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾ (١).

وقد بلغ عدد الأنبياء مع نبينا محمد ﷺ ــ الّذي هو خاتمهم وسيدهم ــ مائة وأربعة وعشرين ألف نبي ورسول ، إضافة إلى الكتب الأربعة ، الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن ، وعشرات الصحف والتعليمات ، وكان جميع هؤلاء الأنبياء يدعون إلى دين واحد ، وعقيدة واحدة ، وهي : « لا إله إلاّ الله » ، فهو التوحيد الّذي من

---

(١) سورة فاطر : ٣٥ / ٢٤.

خلاله تثبت كل المبادئ الحقة ، الّتي من أهمها النبوة والمعاد ، المتمثلة بالإسلام الّذي هو دين الله كما قاله سبحانه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ ﴾ [1].

فالدين منهج تقتضيه فطرة الإنسان وعقله ــ كما سوف نرى إن شاء الله ــ ، لذلك لا نجد قوماً من الأقوام ، وعلى مرور الأزمان ، ليس لهم دين يدينون به ، ومعبود يعبدونه .

ولا يضر بهذه القاعدة العامة اولئك الذين انحرفوا عن هذا الأمر الفطري ، حيث أنكروا الله في ألسنتهم إلاّ أن قلوبهم مطمئنة به قطعاً ، ولكن الظلم والتكبّر هو السبب الكامن وراء ذلك الانكار الظاهري ، ثم إنّ انحراف هؤلاء لا يضر بفطرية الدين أو كون التصديق بالمعبود وعبادته أمراً فطرياً .

ان بحثنا هذا ، يتناول موضوعاً مهماً وأساسياً في سير الإنسان الفكري والعملي ، وهو « فطرية الدين » والذي نطقت به الآية المباركة : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [2].

وسوف نناقش بعض النظريات الوضعية في تفسيرها لظاهرة وجود الدين عند الإنسان ، معتمدين الاختصار والتيسير تمشياً مع الحاجة إلى ثقافة دينية ميسرة. والله من وراء القصد.

---

(١) سورة آل عمران : ٣ / ١٩.

(٢) سورة الروم : ٣٠ / ٣٠ ــ ٣٢.

المحور الأوّل

ما هو الدين ، وكيف وجد عند الإنسان ؟

المعنى اللغوي للدين :

١ ــ ان كلمة « الدين » تؤخذ تارة من فعل متعدٍ بنفسه نحو « دانه يدينه » . وتارة أُخرى من فعل متعد باللام ، نحو : « دان له » . وتارة من فعل متعد بالباء نحو : « دان به » .

٢ ــ ومن الطبيعي أن الاختلاف في الاشتقاق ينشأ من الاختلاف في المعنى ، فإذا قلنا : « دانه ديناً » عنينا بذلك أنّه ملكه ، وحكمه ، وساسهُ ، ودبره ، وقهره ... .

فهو هنا بمعنى الملك والتصرف ، بما هو شأن الملوك في السياسة والتدبير وغيره . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ [١] ، أي مالك يوم المحاسبة والجزاء . وفي الحديث ، « **الكيّس من دان نفسه** » أي حكمها وضبطها . « والديّان » : الحاكم والقاضي [٢].

وأما إذا قلنا : « دان له » أردنا بذلك أنّه أطاعه ، وخضع له . فالدين هنا هو الخضوع والطاعة والعبادة.

وكلمة « الدين لله » يصح أن ينطبق عليها كلا المعنين ، أي : الحكم لله ،

---

(١) سورة الفاتحة : ١ / ٣.

(٢) لسان العرب / ابن منظور ــ دين ــ ١٣ : ١٦٦ ، مفردات الراغب الأصفهاني مادة دين : ١٧٧.

والخضوع والطاعة له.

أمّا إذا قلنا : « دان بالشيء » أي اتخذه ديناً ومذهباً ، أي : اعتقد وتخلق به ، فالدين هنا بمعنى المذهب والطريقة ، الّتي يسير عليها المرء ، نظرياً وعملياً.

إذن « ان كلمة الدين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين ، يعظم أحدهما الآخر ويدين له . فإذا وصف بها الطرف الأوّل ، كانت خضوعاً وانقياداً ، وإذا وصف بها الطرف الثاني ، كانت أمراً وسلطاناً ، وحكماً وإلزاماً ، وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين ، كانت هي الدستور المُنظِّم لتلك العلاقة ، والمظهر الذي يعبر عنها » [1].

هكذا تعرفنا على المعنى اللغوي للدين ، وبقي علينا ان نحدد المعنى الاصطلاحي من أنحاء متعددة.

المعنى الاصطلاحي للدين

مما ينبغي الاشارة إليه ان التعريفات الاصطلاحية ، لكثير من القضايا الخارجية ، والمفاهيم والمعاني الفكرية وغيرها ، تخضع لفكر الإنسان وفلسفته عن تلك القضايا ، فأولئك الذين يتبنّون المنهج المادي ولا يؤمنون بعالم الغيب ، نجدهم يفسرون الكثير من القضايا تفسيراً ينسجم مع ذلك الإيمان المادي ، في حين أن أصحاب المنهج الالهي لهم تفسير مخالف لأُولئك الماديين ، ومن هنا نشأت تعريفات مختلفة للدين تبين معناه.

ونحن سنذكر بعض تلك التعريفات ، مع مناقشة بعضها ، بما يتلاءم مع طبيعة البحث :

---

(١) الدين / محمد عبدالله دراز : ٣١.

١ ــ عرّف المسلمون الدين بأنه وضع إلهي سائق لذوي العقول ــ باختيارهم إياه ــ إلى الصلاح في الحال ، والفلاح في المآل [١].

٢ ــ أما العلماء الغربيون والشرقيون ، فقد عرّفوا الدين بتعريفات متعددة ، ومشوشة كثيراً ، وهي كالآتي [٢] :

١ ــ يقول سيرون في كتابه (القوانين) : الدين هو الرابط الّذي يوصل الإنسان بالله.

٢ ــ يقول كانتْ في كتابه (الدين في حدود العقل) : الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية.

٣ ــ يقول الاب شاتل في كتاب (قانون الإنسانية) : الدين مجموعة واجبات مخلوق نحو الخالق ؛ واجبات الإنسان نحو الله ، وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه.

٤ ــ يقول تايلور في كتاب (المدنيات البدائية) : الدين هو الإيمان بكائنات روحية.

٥ ــ يقول جوبوه في كتاب (لا دينية المستقبل) : الديانة هي تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية ، والشعور الديني ، هو الشعور بتبعيتنا لمشيئات أُخرى ، يركزها الإنسان البدائي في الكون.

ولا ريب أن الكثير من هذه الآراء لم يراع فيها الجانب الشمولي لحقيقة الدين ، ولكن سنكتفي بهذا العرض اعتماداً على ما سوف يأتي من بيان حقيقة الدين عند الانسان.

---

(١) الانباء بما في كلمات القرآن من أضواء / الكرباسي ٢ : ٢٨٥.

(٢) اقتبسنا هذه التعريفات من كتاب الدين / دراز : ٣٤ ــ ٣٦.

نظريات في سبب تكون الشعور الديني لدى الإنسان

ذكرنا سابقاً أن البشرية لم تحيَ يوماً من الأيام بلا دين ، ولا وجد مجتمع غير متدين عبر العصور ، كما أثبت ذلك علماء الآثار والانثروبولوجيا [1] ، حيث أثبت هؤلاء العلماء أنّ النزعة الدينية متأصلة في وجود الإنسان (فإن المصريين ، منذ آلاف السنين قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام ، بدأوا يسجلون عقائدهم ، ووقائعهم ، وألوان حياتهم ، أقوالاً متفرقة مسطورة في قراطيس البردي ، أو منقوشة على جدران المقابر والمعابد ، ... فتركوا لكلٍّ إقليم حريتهُ في تقديس ما شاء) [2].

وهذا الكلام ليس تخرصاً بلا دليل ، بل إن بعض هذه الآثار محفوظ إلى الآن في متاحف العالم ، (وتدلّ بعض أوراق البردي المخطوطة والموجودة الآن في برلين ، وفي لندن ، على أن المصريين منذ القدم ، كانوا يعرفون الإله الواحد الأزلي ، الّذي لا تصوّرهُ الرسوم ولا تحصره الحدود » [3].

وليس المصريون وحيدين في هذا المضمار ، فقد نقل عن اليونانيين في العصر الاغريقي ذلك أيضاً ، حيث وجد العلماء أنّ أقدم الآثار الّتي حصلوا عليها تؤكّد وجود الدين عندهم ، كما هو في الديوانين المنسوبين إلى

---

(١) مصطلح الاثروبولوجيا يقصد به علم الإنسان بجوانبه العديدة مثل الدين والثقافة والعادات وغيرها من أنشطة الإنسان.

(٢) الدين / دراز : ١٠.

(٣) الدين / دراز : ١٠ نقلاً عن موسوعة التاريخ العام للديانات ١ : ٢٥١.

« هوميروس » : « الإلياذة » ، و « الأوديسا » ، وهما سلسلتان من القصص الشعرية عند قدماء اليونان ، حيث نرى فيها ذكر أسماء آلهتهم ، وآلهة خصومهم ، ووصف القبريات والضحايا والتوسلات.

أما في الشرق الأقصى ، فإنّ الأمر واضح جداً ، كما تؤكّد ذلك الأبحاث المعمّقة للانثروبولوجيا ، الّتي تثبت أنّ النزعة الدينية لم تفارق العالم الشرقي أبداً ، هذا ما تؤكّده الأبحاث العلمية.

ولكن إذا أردنا وجهة نظر الدين نفسه ، فإنّ الإسلام وغيره من الديانات السماوية ، تؤكّد بأنّ الشريعة الإلهية صاحبت البشرية منذ أول الخليقة (آدم عليه السلام) ، وذلك من خلال تعليمه الأسماء الّتي فيها الأحكام المتعلّقة بسلوكه وسلوك بنيه نحو خالقه ، بعد انتهاء فصول تلك المعركة الّتي دارت رحاها ما بين آدم عليه السلام وإبليس ، وما ترتّب عليها من خروج آدم عليه السلام من الجنة ، ثمّ توبته وتلقّيه الكلمات الإلهية ، وأُوضح له الحلال والحرام وحدود العلاقات الاجتماعية وما شابه ذلك ، قال تعالى : ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [1].

إذا اتضح هذا بقي لدينا سؤال يطرح في المقام وهو أنّه لماذا يعتنق الإنسان الدين ـ أي دين كان ـ ؟ وما هو سبب تجذّر النزعة الدينية في النفس البشرية ؟ وهل يمكن للإنسان أن يعيش يوماً من الأيام من دون دين ؟

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٣٨ ـ ٣٩.

ان هذه الأسئلة خاطَرَتْ الكثير من العقول المفكرة ، وأصحاب النظريات الفلسفية والاجتماعية ، فأدلى كلٌ منهم بدلوه ، وظهرت نتيجة ذلك نظريات واتجاهات متعددة ، في تفسير الظاهرة الدينية عند الإنسان ، وسوف نعرض قسماً من هذه النظريات محاولين مناقشتها بموضوعية وبشكل مختصر بما يتلائم وطبيعة البحث متجنبين الإسهاب ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

أوّلاً : نظرية الجهل

وهي النظرية القائلة : بأنّ (الدين كان وليد الجهل بالمظاهر الطبيعية) ، لأن الإنسان القديم كان يتألم من تلك المظاهر الطبيعية ، كالزلازل ، والصواعق والفيضانات والسيول ... إلى آخره . وهو لا يعلم مصدرها وعلّتها وكيفية تكونها.

وحينما لم يستطع أنّ يعلل تلك الظواهر الطبيعية ، ويحللها ويصل إلى أسبابها الحقيقية كان يضنّ أنّ لكل ظاهرة طبيعية روحاً ، وكان يتخذ من هذه الروح إلهاً.

وعليه فإذا كان منبع الدين هو الجهل بحقيقة هذه الظواهر ، فإنّه يزول قطعاً عند معرفة الأسباب الحقيقية لها ، (ولما كان العلم الحديث القائم على أُسس التجربة العينية قد أزال النقاب عن كثير من ألغاز الطبيعة ومجهولاتها ، وعرّف الإنسان الأسباب الطبيعية لهذه الظواهر ... فلم يعد هناك ما يبرّر الإيمان بهذا المبدأ الغيبي ، واستطاع العلم أن يحلّ بكفاءة محلّ التفسيرات الغيبية الميتافيزيقية.

لقد أثبت « نيوتن » أنه لا وجود لإله يحكم النجوم ، وأكد « لابلاس » بفكرته الشهيرة أنّ النظام الفلكي لا يحتاج إلى أُسطورة لاهوتية ، وقام بهذا الدور العالمان « دارون » و « باستور » في ميدان البيولوجيا) [1].

والذين يطرحون هذه النظرية عديدون على رأسهم « تايلر » ، و « سبنسر » ، و « راسل » [2].

مناقشة النظرية :

إن هذه النظرية ـ كما هو واضح ـ تجعل جهل الإنسان بالسبب الطبيعي للظواهر الكونية أو الطبيعية ، علة لنشوء واعز الدين في نفسه ، فالجهل هو الذي يشده إلى العالم الغيبي ، طلباً للمعونة ، وخوفاً من الأخطار ، فهو يتصوّر أن في تلك الظواهر روحاً لا بد أنّ يتقرب إليها ، ويتملّق لها كسباً لرضاها ، ودفعاً لغضبها ، وعلى هذا لا بدّ أن يزول الدين بمجرد معرفة الأسباب الطبيعية لتلك الظواهر.

لكنّ هذا التفسير لا يصمد أمام النقد ، كما أنّ هؤلاء لا يستطيعون أن يقدّموا البرهان الواقعي لفكرتهم ؛ لأننا نرى أن الناس يزدادون تديناً كلما ازدادوا علماً ، بل إن العلماء أكثر تديناً من الجهلاء ، وما ذلك إلاّ لكون العلم لا يؤدّي إلى الالحاد ، في أيّ عصرٍ من العصور ، فالعالم المنقّب عن الحقائق يجد في هذا الوجود عالماً لا حدود له ، يسوده نظام محكم دقيق ، بلا فوضى ولا اختلاف أو تخلف ، فلا يلبث بعد النظر والتأمّل أن يقع ساجداً لله ، الّذي أوجد هذا الكون العظيم وما يحمل من أسرار وحقائق ، وصدق

---

(١) دور الدين في حياة الإنسان / الآصفي : ٦١.

(٢) الفطرة / المطهري ١٣٨.

الله إذ يقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [1].

(نشر الدكتور « ديزت » الألماني بحثاً حلل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلمـــاء ، الذين أناروا العقول في القرون الأربعة الأخيرة ، وتوخّى أن يدقّق في معرفة عقائـــدهم ، فتبين له من دراسة [٢٩٠] منهم ما يلي :

١ ــ « ٢٨ » منهم لم يصلوا إلى عقيدة ما.

٢ ــ « ٢٤٢ » منهم أعلنوا على رؤوس الأشهاد الإيمان بالله.

٣ ــ « ٢٠ » فقط تبين أنهم غير مبالين بالوجهة الدينية ، أو ملاحدة) [2].

وبعد هذا ، فهل تصح هذه النظرية الّتي توعز علة نشوء الدين إلى الجهل بالظواهر الطبيعية ؟!

وتأكيداً على خطأ هذه النظرية ، ننقل هذه الطائفة المختارة من أقوال أكابر العلماء الغربيين ، والتي تؤكّد بأنّ الإيمان بالله لا يتعارض مع العلم مطلقاً :

١ ــ يقول العالم الكبير « باستور » . ــ والذي جعل أصحاب هـــذه النظريـــة اكتشافاته البيولوجية تقوم مقام الإيمان بالله تعالى ــ : (الإيمان لا يمنع أي ارتقاء كـــان ؛ لأنّ كلّ ترق يبين ويسجل الاتساق البادي في مخلوقات الله ، ولو كنت علمتُ أكثر ممـــا أعلم اليوم ، لكان إيماني أشد وأعمق مما هو عليه الآن ، ... إنّ العلم لا يمكن أن يكـــون مادياً ، ولكنه على خلاف ذلك يؤدي إلى زيادة العلم بالله ؛ لأنّه يدلّ بواســـطة تحليـــل الكون

---

(١) سورة فاطر : ٣٥ / ٢٨.

(٢) روح الدين الإسلامي : ٨٤.

على مهارة وتبصّر وكمال عقل الحكمة الّتي خلقت النواميس المدبّرة للوجود).

٢ ــ يقول العالم الكيمياوي « وتز » : ــ (إذا أحسست في حين من الأحيان أنّ عقيدتي بالله قد تزعزعت ، وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها).

٣ ــ يقول الفلكي الكبير « فاني » : (من الخطأ القول بأن العلم يُفضي بصاحبه إلى نكران وجود الله).

٤ ــ يقول الجيولوجي الكبير « امون هدبرت » : (العلم لا يمكن أن يــؤدّي إلى الكفر ، ولا إلى المادية ، ولا يفضي إلى التشكيك).

٥ ــ قال العلاّمة والمؤرخ الطبيعي « فاير » : (كل عهد له أهواء جنونية ، فإنّي أعتبر الكفر بالله من الأهواء الجنونية ، وهو مرض العهد الحالي ، وأيسر عندي أن ينتزعــوا جلدي ، من أن ينتزعوا مني العقيدة بالله) [1].

وقد سئل الدكتور « اندرو كوانواي إيفي » من قبل أحد رجال الأعمــال هــذا السؤال : سمعت أنّ معظم المشتغلين بالعلم ملحدون ، فهل هذا صحيح ؟!

فأجاب الدكتور قائلاً : (إنني لا أعتقد أنّ هذا القول صحيح ، بل إنني على نقيض ذلك ، وجدت في قراءتي ومناقشتي أنّ معظم من اشتغلوا في ميدان العلوم من العبــاقرة لم يكونوا ملحدين ، ولكن الناس أساءوا نقل أحاديثهم ، أو أساءوا فهمهم) [2].

ولو أردنا إحصاء التصريحات التي أدلى بها العلماء في إثبات وجود الله

---

(١) روح الدين الإسلامي / عفيف طبارة : ٨٤ عن مجلة الأزهر ــ المجلد ١٩.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم / مجموعة من العلماء : ١٥٢.

تعالى ، وضرورة وجود الدين ، لتطلّب ذلك مئات الصفحات.

وبعد هذه الأقوال الّتي صدرت من أساطين العلم وعباقرته ، هل يسع أصحاب نظرية الجهل أن يتحفونا بتعليل لهذه الأقوال ، أو يأتونا بدليل أقوى من أدعائهم السابق ؟

قال تعالى ، وقوله الحقّ : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

و ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [2].

التوجه الديني في نظر الاسلام : أما لو رجعنا إلى الدين الإسلامي لرأينا أنه يؤكد على أن التوجّه الديني لا بد أن ينساق مع فكر الإنسان وعلمه لا عن جهله وتقليده ، ومن هنا وردت عشرات النصوص التي تدعو الإنسان إلى التفكّر في ملكوت السموات والأرض ، وهو ما يعبر عنه في علم العقيدة ببرهان النظم الذي يقوم على أساس أن الاهتداء إلى وجود الله سبحانه إنما يكون عن طريق مشاهدة النظام الدقيق البديع السائد في عالم الكون ، حيث نرى أن القرآن الكريم يلفت نظر الانسان إلى السير في الآفاق والأنفس ويقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ [3].

ويقول : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ

---

(١) سورة الروم : ٣٠ / ٣٠.

(٢) سورة الانعام : ٦ / ٨٣.

(٣) سورة فصلت : ٥٣.

دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [1].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام : « ألا ينظرون الى صغير ما خلق ؟ كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه ، وخلق له السمع والبصر ، وسوّى له العظم والبشر ، انظروا الى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تُنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبت على أرضها ، وصبت على رزقها ، تنقل الحبة الى جحرها ، وتعدها في مستقرها ، تجمع في حرها لبردها ، وفي وردها لصَدْرها ... فالويل لمن أنكر المقدِّر وجحد المدبِّر » [2].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال : « أول العبر والادلة على الباري جل قدسه ، تهيئة هذا العالم ، وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه ، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك ، وميزته بعقلك ، وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده ، فالسماء مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم منضودة كالمصابيح ، والجواهر مخزونة كالذخائر ، وكل شيء فيه لشأنه معد ، والإنسان كالمملّك ذلك البيت ، والمخوَّل جميع ما فيه ، وضروب النبات مهيئة لمآربه ، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه ، ففي هذا دلالة واضحة على ان العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملائمة ، وان الخالق له واحد ، وهو الذي ألّفه ونظّمه بعضاً إلى بعض جل قدسه وتعالى جده » [3].

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ١٦٤.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٨٥.

(٣) بحار الأنوار ٣ : ٦١.

ثانياً : نظرية الخوف

وهي لا تختلف كثيراً عن النظرية الأُولى ، غير أنّها تُركز على عنصر الخوف عند الإنسان من الظواهر الطبيعية ، أو الصراعات ما بين الإنسان والحيوان ، أو ما بين الإنسان وأخيه الإنسان ، ولأنّه لا ملجأ له إلاّ الاستعانة بقوة غيبية يستمدُّ منها العون والمساعدة ، فيخضع لها لتساعده على كل ذلك . أو أنّه يرى أن سبب هذه الظاهرة قوة خفية تغضب عليه فتعاقبه بتلك الكوارث ، لذلك ونتيجة خوفه منها يتجه إليها بالعبادة والخضوع ، ومن هنا نشأ الدين.

ومن القائلين بهذه النظرية « اك برن وليم كف » في كتابه « مبادئ علم الاجتماع » حيث يقول : « لقد كان الدين يشبه السحر إلى حدٍ كبير في المراحل المتقدمة من تاريخ الإنسان ، فإن الساحر والمتدين كانا يعملان معاً في إرضاء الطبيعة الساخطة ، وتوفير الأمن لأنفسهم » [1].

ومن هؤلاء أيضاً « برتراند راسل » الفيلسوف الانگليزي المعروف ، الذي يقول: « في عقيدتي ، أن الاقبال على الدين والتدين في تاريخ الإنسان ، ينشأ عن الخوف ، فإن الإنسان يرى نفسه ضعيفاً إلى حدٍ ما في هذه الحياة ... وعوامل الخوف في حياة الإنسان ثلاثة :

فهو يخاف ــ أولاً ــ من الطبيعة الّتي قد تحرقه بصاعقة من السماء ، أو تبتلعه بزلزال في الأرض تحت قدميه . ويخاف ــ ثانياً ــ من الإنسان الّذي قد يسبب له الدمار والخراب والهلاك ، بما يثير من حروب . ويخاف ــ ثالثاً

---

(١) دور الدين في حياة الإنسان / الآصفي : ٧٤.

ـــ من شهواته الّتي قد ينجرف معها ، وتتحكم في سلوكه ، وتفوّت عليه ما يندم عليه من ساعات استقراره وهدوئه . ويكون الدين سبباً في تعديل هذا الخوف والرعب ، والتخفيف منه » [1].

مناقشة النظرية :

نعلق ـــ أولاً ـــ على كلام « اك برن وليم كف » الذي شبه الدين بالسحر ، وجعل المتدين كالساحر ، يعملان معاً لارضاء الطبيعة الساخطة.

فنقول : إنّ من الواضح جداً أنّ هناك فرقاً كبيراً بين ما يعتقده المتدين ويتوجه إليه ، وبين ما يعتقده الساحر ويعمل فيه ، وذلك لأنّ « القوى السرية الّتي يدعوها الساحر والكاهن أو مُناجي الأرواح ، لا تقع صورتها في أخيلتهم على أنها شيء يعلوهم فيتطاولون إليه ، بل على أنّها قرن ينازلونه ، أو قرين يخاذلونه ، وقد يرون لاَنفسهم من العلو والسلطان على تلك القوى بوسائلهم الخاصة ، ما يستطيعون به أن يقتنصوها ، ويخضعوها لأوامرهم ، ويسخروها لرغباتهم ، كما يسخر الكيمياوي عناصر الطبيعة المادية لمآربه . أما العابد ، فإنّه يقف من معبوده موقف الخاضع المتواضع ، الساعي في إرضاء سيده المشفق من غضبه وسخطه.

فالفاصل الأخير الّذي يتم به تصوير القوة التي يؤمن بها المتدين ، أنها قوة علوية قاهرة ، غير مقهورة ، يخضع هو لها ولا تخضع له) [2].

ولكي نسلط الضوء أكثر على الموضوع ينبغي توضيح معنى السحر :

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الدين / دراز : ٤٥.

السحر : هو صناعة يقصد منها إحداث الخوارق بطرق خفية . وهو فَنٌ قديم جدا ، ورد ذكره في القرآن الكريم ، وهو يتشعب إلى شُعب كثيرة.

لكنه على العموم فن يقوم على الاستعانة بالأرواح ، ودعائها لتحقيق مآرب الساحر ، وهذا هو الّذي ينصرف إليه اسم السحر عند إطلاقه ، وهو الّذي قد يشتبه جنسه بالأعمال الدينية ، بخلاف بعض الأعمال السحرية التي تعتمد الوسائل المادية ، فمن هذا القسم نوع يقوم على المهارة وخفّة اليد ، وهو المسمى بالشعبذة (وهي إراءة غير الواقع واقعاً ، بسبب الحركة السريعة الخارجة عن العادة) [1].

ونوع ينتفع بالخصائص الطبيعية والكيماوية للأشياء ، وهذا هو سحر علماء الصيدلة ونحوهم ، ونوع يعتمد على حساب سير الشمس والقمر ، ومواقع النجوم ، وما يظّن من الارتباط بينها وبين حوادث الكون ، وهو المسمى « التنجيم » [2].

(أما القسم الروحي ، فالفرق الرئيسي بينه وبين الديانات ، هو أنّ الاستعانة بالأرواح فيه استعانة استخدام وتسخير ، لا استعانة عبودية وتمجيد وتقديس.

هذا وقد ذكر دور كهايم ومتابعوهُ فروقاً أُخرى فقالوا : إنّ وجه الانفصال بين الحقيقتين هو : أنّ الأصل في الشعائر الدينية أن تُؤدّى في الجماعة ، وأن الفكرة الدينية تؤلف بين معتنقيها في وحدة معنوية ، ولا كذا السحر الذي هو عمل فردي سري ، فضلاً عن أنّه في الغالب ينتهك حرمة

---

(١) منهاج الصالحين / للسيد الخوئي : ٧ ــ المعاملات.

(٢) منهاج الصالحين / السيد الخوئي : ٧ ــ المعاملات.

المقدسات الدينية ، ويعكس أوضاعها » [1].

وبهذا يظهر بطلان هذا الرأي ، الذي شبّه الدين بالسحر ، وأن منشأ تكوّن الدين هو الخوف.

ونناقش ـــ ثانياً ـــ كلام « راسل » في إثبات هذه النظرية ، فراسل يردّد النغمة السابقة في نظرية الجهل من حيث لا يشعر ، لأن الخوف غالباً ما يكون بسبب الجهل وقد ناقشنا ذلك في النظرية الأولى.

ثم إن راسل ذيّل كلامه بقوله : (وتفوّت عليه ما يندم عليه في ساعات استقراره وهدوئه) ، فهو يعترف أن في الإنسان بعدين ، هما الجانب الغريزي ، والجانب الإنساني العلوي ، والذي منه استمدّ فكره وشخصيه.

ويمكن أن نسأل راسل ، أنّ هذا الندم من أي جانب من جانبي الإنسان يصدر ؟ هل من جانبه الروحي العلوي ، أم من جانبه الغريزي الحيواني ؟.

فإذا كان الثاني ، فلماذا لا نرى هذا الشعور لدى الحيوانات ، على الرغم من الاشتراك ما بين الحيوان والإنسان في هذا البُعد وهذا الجانب ؟.

وإذا كان الأوّل ـــ وهو الجانب الروحي ـــ فلماذا لا يكون الواعز الديني ، والانشداد إلى عالم الغيب صادراً منه ، كأيّ نتاج إنساني آخر ، كالفن والفكر والصناعة وغيرها ؟

والعجب من راسل كيف لا يلتفت إلى أن طبيعة الإنسان الفطرية هي البحث عن الحقيقة ، ومحاولة معرفة العلل المحيطة به ، وسبر المجهول والغيب ؟ ألم يفكر الإنسان في ذلك الزمان في سبب وجوده ، ووجود

---

(١) هامش كتاب الدين / دراز : ٤٧.

الأشياء من حوله ، فيدرك بعقله النير ، وفطرته التي تهديه ، بأنّه لا بدّ وأن يكون له خالقٌ مدبرٌ حكيم ، فيتوجه إليه بالعبادة والخضوع ؟! أم إن راسل ومن يوافقه يريدون أن يسلبوا من الإنسان الأوّل حتّى التفكير الّذي يميزه عن الحيوان ؟!

وإذا كان كلامه صحيحاً ، فلماذا نرى كبار الفلاسفة والمفكرين ، منذ الزمن القديم ، منشدّين إلى الله بكل وجودهم ، على الرغم من اختلاف تصورهم عن الله ؟ إن نظرة واحدة إلى التاريخ الفلسفي في العصور القديمة تُجلّي الحقيقة بأبهى صورها.

ونسأل مرة أُخرى : هل إن الالتجاء إلى الله تعالى ، والاطمئنان به ، تخلّصاً من الخوف الناشيء من الاختلاف أو الكوارث ، فيه ما يعيب ؟! وماذا يقول راسل عندما يقرأ آخر الأبحاث النفسية التي تؤكد أن الإيمان بالله تعالى علاج ناجح جداً ، للتخفيف من المعاناة والعقد النفسية ، الناتجة عن الكوارث وغيرها ؟

إنّ التوجه إلى الله تعالى في حالة الخوف ليس فيه ما يعيب ، لأنّه من فطرة الإنسان ، التي فطرها فاطر السموات والأرض ، قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [1].

جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام فقال له : يابن رسول الله دلّني على

---

(١) سورة يونس : ١٠ / ٢٢.

الله ما هو ، فقد كثر عليّ المجادلون وحيروني ؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام : « هل ركبت سفينة قط ؟ » قال : نعم . قال « فهل كُسِر بك حيث لا سفينة تنجيك ؟ » قال : نعم . قال : « فهل تعلّق قلبك هنالك ، أنّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك ؟ » قال : نعم . قال الإمام الصادق عليه السلام : « فذلك الشيء هو الله ، القادر على الانجاء حيث لا منجي ، وعلى الاغاثة حيث لا مغيث » [1].

ثمّ إن الالتجاء إلى الله تعالى في حالات الخوف لا يكون دليلاً على أن وجود الواعز الديني عند الإنسان هو نفس الخوف ، وإنما يكون ذلك السلوك من الإنسان دليلاً على أنه لو لم يكن الإنسان قد آمن بهذا الخالق العظيم في طيات نفسه وضميره ، واعتقد ذلك بما لا يقبل الشك ، لما كان قد تعلق قلبه في وقت الشدة والخوف به ، حيث لا منجي إلاّ هو لأن الإنسان قد يعتريه التكبّر والجحود ، لا لكونه ليس مؤمناً في واقع فطرته ، وإنما بسبب نزعة التمرد عنده ، وهذا ما يشير إليه القرآن صريحاً بقوله : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾ [2]. وقوله : ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾ [3].

إذن فالإنسان الذي يلتجئ في حالات الخوف إلى الله (إنما يكون تصور الخوف سبباً للانتباه إلى وجود الإله الخالق عبر ذلك الإذعان الفطري ، وذلك البرهان العقلي ، لا سبباً موجداً له في الذهن ، وكم فرق بين

---

(١) نوادر الأخبار : ص٦٥ ، بحار الأنوار / للعلامة المجلسي ٣ : ٤١.

(٢) سورة النمل : ١٤.

(٣) سورة الكهف : ٥٤.

كون الشي داعياً إلى أمر بسبب ملازمة عقلية أو عرفية بينهما ، وبين كون الشيء موجداً لذلك الأمر في رحاب الذهن ومبدعاً له ، والصحيح في المقام هو الأول دون الثاني)[1].

ثالثاً : النظرية الماركسية

تذهب الماركسية في تعليلها لظهور الدين ، إلى أن الدين من صنع الطبقات البرجوازية التي سيطرت على رؤوس الأموال ، وامتلكت الأراضي ووسائل الانتاج واتخذت من الدين وسيلة لتخدير العمال والفلاحين ، لئلا يقوموا بثورات تحررية ضدهم.

فالدين وليد حاجة الطبقة البرجوازية وذلك للإبقاء على الفوارق الطبقية في المجتمع عن طريق خداع الكادحين بجرعات الأمل الكاذب ، واليأس من السعادة في هذه الدنيا ، من خلال شدّهم إلى عالم الوهم والخيال ، وهو عالم الآخرة.

يقول ماركس : (إن التعاسة الدينية ، في الوقت الذي تكشف فيه عن التعاسة الحقيقية ، بمثابة اعتراض على هذه التعاسة ، الدين عبارة عن أنين كائن بائس ، وقلب عالم قاسٍ ، وروح وجود لا روح فيه ، الدين أفيون الشعوب.

إن اختفاء الدين الذي هو بمثابة سعادة الناس الوهمية ، يعتبر من مقتضيات سعادتهم ، إننا نريد أن نهبَ الناس سعادة حقيقية ، فلا بدَّ من أخذ هذه السعادة الوهمية منهم ، ... وعليه فإن انتقاد الدين يعني ـــ حتماً ـــ

---

(١) الله خالق الكون / جعفر الهادي : ٣٤.

انتقاد بحار الدموع الّتي يؤلف الدين هالة حولها . انتقاد الدين ، يخرج الإنسان من الخطأ ، لكي يستطيع أن يفكر كإنسان أدرك خطأه ، وأصبح متمسكاً في عقله ، فيعمل وفق ذلك ، ويخلق واقعه ، لكي يدور حول الشمس الحقيقية ، أي حول نفسه) [1].

مناقشة النظرية :

إن خواء وهزل هذه النظرية واضحٌ كلَّ الوضوح ، حيث اعتبر ماركس أن الدين عبارة عن مخدر للشعوب المستضعفة ، وهو من صنع طبقة تتحكم برؤوس الأموال ، وتسيطر على مقدرات الشعوب ، وهي الطبقة البرجوازية ، فمن خلال الدين ــ المخدر ــ يستطيع أبناء هذه الطبقة المحافظة على عروشهم ، ومصّ النقمة الجماهيرية الرافضة للاستعباد.

ولا أدري كيف غفل ــ أو تغافل ــ ماركس عن حقائق مهمة قبل طرح هذه النظرية ، وكيف ساوى بين جميع الأديان بهذه التهمة القاسية ؟! وللجواب على هذا الرأي نقول :

١ ــ إن الدين كما هو ثابت في علوم الآثار والانثروبولوجيا متأصّلٌ في الوجود الإنساني ، وقد أظهرت الآثار الصحيحة للحضارات البالية ، وتلك النقوش التي وجدت على جدران الكهوف ، بما لا يقبل الشكّ ، وجود الدين والتدين منذ أقدم العصور ، وحتّى الشيوعية الأولية أو الأُولى ــ على حد تعبير الماركسيين ــ قبل أن يكون هناك أصحاب رؤوس أموال أو برجوازيين ، وقبل أن تكون هناك طبقة البروليتاريا الثائرة في وجوههم.

---

(١) الفطرة / المطهري : ١٦٤ ، دور الدين في حياة الانسان / الآصفي : ٢.

فهل لماركس والماركسيين ، أن يوضّحوا لنا سبب وجود ظاهرة التدين في ذلك العصر ؟! ولكنهم لا يستطيعون الإجابة على مثل هذا السؤال ، فليس أمامهم خيار إلاّ التخلّي عن هذا الرأي ، الذي خدعوا به الناس عشرات السنين ، حتّى بان وهنه ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ (١) أو أن يتغافلوا عن هذه الحقيقة ويخادعون أنفسهم ، وهكذا فعلوا !!

٢ ــ ونحن نسأل ثانياً ، هل إنَّ كل الأديان كانت تحذّر أتباعها عن القيام بالثورات التحررية ، وتمنعهم عن التصدي لظلمة ، والمستغلين ، وتُمنّيهِمْ وتبشّرهم بجنات النعيم ؟... عوضاً عن العذاب الذي يلاقونه في هذه الدنيا ، وتلقّنهم أن من الواجب عليهم الصبر والتحمل ، والرضوخ لقضاء الله وقدره ، لأنّه خلقهم للسعادة والنعيم في الحياة الآخروية.

إن مشكلة هؤلاء وأمثالهم هي التغاضي والاعراض عن الحقائق الموضوعية ، وإلاّ ألا يتسنّى لماركس وأتباعه ، الاطلاع على تعاليم الإسلام الّتي أشرقت الأرض بنورها ، والّتي صنعت حضارة تعتزّ الإنسانية بها ؟! علماً أنَّ أساس تلك الحضارة والرقي في كافة الأصعدة ليس إلاّ الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالإسلام لا يقبل بالخنوع والخضوع والتذلل للظلمة وأعوانهم ، بل يضرب بيدٍ من حديد كلّ الأصنام الّتي تريد من الناس أن يكونوا عبيداً لها ، فهذا رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم يقوم بنفسه بمقاتلة الكفرة والظالمين ، حتّى ربتْ غزواته على السبعين ، وتُوّج ذلك بالنصر المؤزّر على كل أُولئك

---

(١) سورة العنكبوت : ٢٩ / ٤١.

الطغاة ، مع العلم بأن الذين حاربوه لم يحاربوه من أجل الدين بما هو دين وإنّما بسبب كون الدين الإسلامي يساوي بين السيد والعبد ، والفقير والغني ، فما زال شعاره « كلكم لآدم وآدم من تراب » و « المسلمون سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى » ، ونفس المبدأ سار عليه أصحابه من بعده ، حتّى فتحوا الحصون والدول ، فانتشر الإسلام في بقاع الأرض بتعاليمه النيرة ، حتّى بلغ الشرق والغرب.

فالإسلام يحرّم القعود والخنوع والتميّع ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [1]. وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ... ﴾ [2]. وقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [3].

إنّ الإسلام على خلاف أغلب الأديان ــ إذا لم نقل كلها ــ يجعل التقاعس عن مقارعة الظالمين إثماً ووزراً يعاقب عليه أتباعه ، قال تعالى : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [4].

أما الأحاديث والروايات الصادرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام ، فإنها تشدّد على وجوب الجهاد وحرمة تركه بشكل كبير . نأتي منها بهذا

---

(١) سورة النساء : ٤ / ٩٧.

(٢) سورة التوبة : ٩ / ١١١.

(٣) سورة الحج : ٢٢ / ٣٩.

(٤) سورة هود : ١١ / ١١٣.

الحديث :

١ ــ عن أبي عبدالرحمن السلمي ، قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه » ــ إلى ان قال ــ : « هو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنّته الوثيقة ، فمن تركه ألبسه الله ثوب الذُلّ ، وشمله البلاء ... » [١].

وهكذا نجد أن النصوص الإسلامية طافحة في الحثّ على الجهاد ، وعدم القعود والتقاعس ، بل ان بعض النصوص تؤكّد أنّه يجب أن يدافع الإنسان بكلّ قوته عن ماله وأهله [٢]. فضلاً عن عرضه ووطنه وعزّته.

فالإسلام ليس أفيون الشعوب ، بل نراه يحثّ على الثورة والمجاهدة ، ففي نظر الإسلام أنّ الإنسان إذا تسلط على الغير بالقوة ، وفرض سيطرته على الآخرين بالقهر ، فذلك هو « الطاغوت » الذي لا بدّ من إشعال الثورة ضده ، حتّى يتم تحطيمه وأسقاطه ، فالطاغوت هو من يطغى بنفسه مستكبراً على سنّة ربِّه ، ويريد هو وحفنة من أمثاله أن يفرضوا على الناس طاعتهم ، ويسلّموا مصيرهم إليهم . فعندما يكون في المجتمع شخص أو فئة من هذا القبيل فالإسلام يأمر أتباعهُ حينئذ بمحاربته ومقاومته بكلّ ما أُوتوا من قوة ، قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [٣]. وقال تعالى : ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ** ﴾ [٤].

---

(١) المصدر السابق ١٥ : ١٤.

(٢) الوسائل / الحر العاملي ١٥ : ١٤١.

(٣) سورة النحل : ١٦ / ٣٦.

(٤) سورة البقرة : ٢ / ٢٥٦.

إذاً الإيمان بالله وحده غير كافٍ أبداً في نظر الإسلام ، بل لا بد أن يقترن بالكفر بالطاغوت ، بل الكفر بالطاغوت يكون مقدمة للإيمان بالله تعالى ، لأنّ من الواجب أوّلاً إزالة الأسباب الّتي تؤدي إلى الكفر ، ثمّ بناء أساس الإيمان والتقوى.

فهل يصحّ بعد هذا كلّه لماركس أن يقول : (إن الدين الإسلامي أفيون الشعوب) نعم المسيحية الكنسية واليهودية المحرفة قد يكونا أفيون الشعوب ، فإنّ تلكما الديانتين الّتي عاش ماركس في وسطهما ، وارتضع من ثدييهما ، تدعوان أتباعهما إلى الخضوع والذلة ، إلى درجة لا تجعل للكرامة الإنسانية أي مكان فيهما ، فقد جاء في إنجيل متى (أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرير ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر).

وتجد في بعض النصوص أنهم يذهبون إلى الحرمة القطعية للثورة والنضال ، فقد جاء في أناجيلهم المحرّفة ادعاؤهم أن عيسى عليه السلام قال للقديس بطرس : (أعد سيفك إلى مكانه ، لأنّ كل الذين يأخذون السيف بالسيوف يهلكون) بينما نرى الإسلام على عكس ذلك ، حيث يقول : ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ [1] وهذا تأريخ الإسلام والمسلمين زاخر بالحروب والثورات الجهادية ، حتّى أتُّهِم الإسلام بأنّه ما قام إلاّ بالسيف ، وأنّه دموي النزعة ، ولا يوجد مصداق أوضح من ثورة الإمام الحسين عليه السلام الّتي سطّر فيها هو وأهل بيته وأصحابه ، على قلّة العدد وخذلان الناصر ، أروع صور البطولة والفداء والثورة والرفض للطغاة.

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ١٩٤.

والعجيب أن هؤلاء يناقضون أنفسهم ، فبينما يتهمون الدين بأنّه أفيون الشعوب ، يصرّحون بأن الإسلام قوة ثورية في وجه الطغاة ، فقد زار خروشوف ، أحد القادة الشيوعيين في دولة الاتحاد السوفيتي ، الجزائر يوماً ، وقابل (بن بلاّ) فشرح له بن بلاّ مكانة الإسلام في هذه المنطقة من العالم ، وكيف استطاع أن يحرّر المسلمين بفضل تعاليمه من الاستعمار الفرنسي ، فقال خروشوف : (نعم إنّ الإسلام في هذه المنطقة يمثّل قوةً ثورية) [1].

وهكذا نرى وهن هذه النظرية ، التي لم تقم على أساسٍ موضوعي ، لذلك فهي لا تصلح أبداً لتفسير نشوء ظاهرة الدين والتدين في حياة الإنسانية.

ومن خلال استعراضنا لهذه النظريات ــ الغربية والشرقية ــ التي تفسّر علة تكون ظاهرة الدين في حياة الإنسان ونقدها وإثبات خطئها ، يمكن لنا أن نتساءل : إذن ما هي العلة الحقيقية الّتي دفعت الإنسان ، ومنذ أول وجوده على هذه الأرض ، وإلى أن تنتهي الحياة ، إلى أن يعتنق الدين ، ويؤمن بتلك القوة الملكوتية المهيمنة على هذا الوجود ، ويخضع لها بكل جوارحه ؟

هذا ما سوف نتعرف عليه في المحور الثاني من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

---

(١) كتاب الفطرة : ١٦٣.

المحور الثاني

الدين فطرة إنسانية

ها نحن نصل إلى أصل المطلب وجوهره ، وهو إثبات النظرية الالهية في نشوء الدين التي تتمثل بكون الدين أمراً فطرياً كامناً في نفس الإنسان لا يختلف ولا يتخلّف ، كما يظهر جلياً من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [1]. فمفاد هذه الآية المباركة ، هو المحور الذي سوف يدور عليه موضوع بحثنا ، وإثبات النظرية الإسلامية الحقة ، بما يتلاءم مع آراء علماء النفس والانثروبولوجيا ، ويتلاءم مع واقع الطبيعة البشرية كذلك.

ولكن لا بد لنا أوّلاً أن نعرف معنى الفطرة ، ونثبت أصل وجودها ، لكي نستطيع أن نجعلها دليلاً وبرهاناً لنا.

المعنى اللغوي للفطرة

مادة (فَطَرَ) وردت كثيراً في القرآن ، وهي تعني في هذه المواضع الخلق والابداع أي الايجاد بغير سابقة.

إلاّ أنّ هذه المادة بهذه الصيغة ــ أي بوزن فِعلَة ــ لم ترد إلاّ في آية

---

(١) سورة الروم : ٣٠ / ٣٠.

واحدة هي قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [1].

وفي اللغة العربية تدلّ صيغة « فِعلَة » على المصدر الدال على هيئة الفعل ونوعه ، وعليه فإن كلمة « فطرة » الّتي ترد بشأن الإنسان وعلاقته بالدين ﴿ فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ تعني تلك الهيئة الّتي خلق بها الإنسان.

أي إن الله قد خلق الإنسان بهيئة خاصة ، بما فيها تلك الخصائص التي أودعها فيه متميزاً عن خلقه ، وهي فطرته [2].

وقال الطبرسي في (مجمع البيان) : « فطرة الله : الملة ، وهي الدين والإسلام والتوحيد ، التي خُلق الناس عليها ولها وبها ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « كل مولد يولد على الفطرة ، حتّى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه ويمجّسانه » [3].

وجاء في (تفسير الميزان) : « قال الراغب : أصل الفطر الشق طولاً . يقال : فطر فلان كذا ، وأفطر هو فطوراً وانفطر انفطاراً . إلى أن قال : وفطر الله الخلق ، وهو إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال. فقوله : ﴿ فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ إشارةٌ منه تعالى إلى ما فطر ، أي أبدع وركز فيه من قوته على معرفة الإيمان ، وهو المشار إليه بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [4].

---

(١) سورة الروم : ٣٠ / ٣٠.

(٢) الفطرة / المطهري : ١٠ ــ ١١.

(٣) مجمع البيان / الطبرسي ٨ : ٥٩.

(٤) الميزان / الطباطبائي ١ : ٢٨٧ ، سورة الزخرف : / ٧٨.

ومن هذا العرض يتبين لنا : أن الفطرة هي تلك القوة التي أودعها الله في الإنسان وأبدعه عليها ، وهي التي تدفعه نحو الله تعالى ، والقيم والأخلاق والسيرة الفاضلة.

الفرق بين الفطرة والطبيعة والغريزة

ولكي لا يختلط الامر بين الاصطلاحات الثلاثة نوضح كل منها وبشكل مختصر :

١ ــ الطبيعة : « وهي كلمة تطلق على الخصائص الذاتية للأشياء ، وتستعمل عادةً بشأن الجمادات ، وقد تستعمل بشأن الأحياء كذلك ــ فعندما نريد أن نشير إلى طبيعة الأوكسجين مثلاً نقول : إنه قابل للاشتعال. أما الإنسان والحيوان فإن لهما طبيعة تمثل خصائصهما الذاتية ، كما للجماد كذلك » [١].

٢ ــ الغريزة : « هذه الكلمة تستعمل في الأكثر بشأن الحيوانات ، وفي الأقل بشأن الإنسان ، ولا تستعمل بشأن الجماد والنبات » [٢].

والغريزة عبارة عن محركات أولية للسلوك ، ومن الغرائز : غريزة التماس الطعام ، والغريزة الجنسية ، وغريزة الهروب من الأمر المخوف ، والغريزة الوالدية ، والتجمعية إلى آخره.

ومن الملاحظ أن بعض هذه الغرائز يستهدف إشباع حاجات داخلية للجسم ، كغريزة التماس الطعام ، وبعضها يوجد من أجل التعامل مع البيئة

---

(١) علم النفس التحليلي / د . بيكدلي : ٢٩ ، علم النفس العام / د . عيسوي : ٤٥.

(٢) كتاب الفطرة / المطهري : ٢١.

الخارجية ، مثل غريزة السيطرة ، وللغريزة أياً كان نوعها مظهران : مظهر جسمي ، ومظهر نفسي . وإن كان هذان المظهران متكاملين وليسا منفصلين ، فالمظهر النفسي يتمثل بالأنفعال ، والمظهر الجسمي في التروع أو السلوك [1].

ومن هذا البيان يظهر أن الغريزة يشترك فيها الإنسان والحيوان على حدٍّ سواء ، إلاّ أن الإنسان مضافاً إلى وجود الغريزة فيه ، فقد منحه الله تعالى الفطرة والعقل ، الذي فيهما يستطيع أن يتكامل ، ويحكم الأرض ويسيطر عليها ، ويسخر ثرواتها من أجل خدمته وراحته وسعادته ، بينما يبقى الحيوان تسيّره الغريزة بلا وعي أو إدراك.

٣ ــ الفطرة : وهي تلك الحالة الواعية في شخصية الإنسان التي من خلالها يهتدي إلى الاشياء ، ويحبّ الخير والعدل والاحسان ، والإيمان بالله تعالى ، فهي مجموعة من الأمور كانت ولا تزال تعرف باسم الإنسانية ، أي إنّها أصيلة في الإنسان وليست مكتسبة ، وهي أقرب إلى الوعي ، فالإنسان يستطيع أن يعرف الشيء الذي يعرفه من خلال الفطرة التي تتعلق بأُمور نطلق عليها : الأُمور الإنسانية ، باعتبارها أُموراً تتجاوز شؤون الحيوان [2].

والنتيجة المستخلصة هي : « أنّ الفطرة في الإنسان هي خلقته بكيفية معينة ، تنطوي على مجموعة من الميول والمعارف ، وهذه الميول والمعارف رُكّبت وركّزت في أعماق الإنسان ، بمقتضى خلقته ، فتكون الفطرة هي

---

(١) علم النفس العام / د . عيسوي : ٤٨.

(٢) الفطرة / المطهري : ٢٣ ــ ٢٤.

مقتضى الخلقة ، والأُمور الفطرية هي ما تقتضيه خلقة الإنسان ، بما هو إنسان ، لو خُلِّي وطبعه » [1].

يقول الامام الخميني : « اعلم أنّ المقصود من « فطرة الله » التي فطر الناس عليها هو الحال ، أو الكيفية الّتي خلق الناس وهم متصفون بها ، والتي تعدّ من لوازم وجودهم ، ولذلك « تخمّرت » طينتهم بها في أصل الخلق .

والفطرة الإلهية من الألطاف التي خصّ الله تعالى بها الإنسان من بين جميع المخلوقات ، إذ إن الموجودات الأُخرى ــ غير الإنسان ــ إما أنّها لا تملك مثل هذه الفطرة المذكورة ، وإمّا أن لها حظاً ضئيلاً منها » [2].

الدين والتدين من الأُمور الفطرية

إلى هنا وصل بنا المقام لبيان وإثبات أنّ مصدر الدين والتدين عند الإنسان هو فطرته ، التي تدفعه نحو الإيمان بالله . ففي فطرة كلّ إنسان نزوع نحو التوجّه إلى الله بالعبادة والدعاء والصلاة . وذلك بسبب كون الإنسان ذا طموح لا حدّ له في نيل الكمال والسعادة ، الذي هو من أقوى الدوافع الفطرية عنده ، لذلك نجد أنّ كل أعمال الإنسان تنصبّ في هذا الاتجاه.

إذن فكل إنسان يبحث عن كماله وسعادته ، ويسلك الطرق التي تؤدي إلى ذلك الكمال ، ولكن ربما يخطأ في تشخيص الطريق الموصل إلى ذلك الكمال ، أو يظنّ أن شيئاً آخر هو الهدف ، وهو الغاية التي يبحث عنها.

---

(١) الفطرة / المطهري : ١٢٨.

(٢) الاربعون حديثاً / الامام الخميني : ١٧٠.

أننا نرى أن أُناساً هدفهم في الحياة هو جمع المال فيعيشون لذلك الهدف ، وآخرين هدفهم هو الوصول إلى المقامات الاجتماعية والسياسية بل والعلمية إلى غير ذلك . والمدهش حقاً أن هؤلاء رغم كونهم قد يصلون إلى ما يطمحون إليه إلاّ أنّهم يبقون يتلهفون إلى عالم أسمى ، لأن الإنسان وإن حقق حلمه وهدفه في هذه الدنيا وفي محيطها ، إلاّ أنّه يدرك بعد ذلك أنّه كان على خطأ ، وأن السعادة والغاية ليست هذه الدنيا التي حصل عليها ، لذلك نجد أنّ الذين يسعون جاهدين لتحقيق مثل هكذا أهداف ، بمجرد أن ينالوها فإنهم يملّون منها بسرعة ويبدأون بحثاً جديداً ، ومشواراً آخر ، وسبب ذلك أنهم لم يجدوا الكمال الذي تطلبه نفوسهم في تلك الأشياء التي حققوها.

هذا من جهة ، ومن جهة أُخرى ، فإن الإنسان بما أتاه الله تعالى من قدرات وفكر ، يرى أنّ عمره قصير ومتعته محدودة ، وأهدافه الكثيرة لا يمكن أن يحققها في هذه النشأة ، فلا بد ـــ بمقتضى فطرته ـــ أن يبحث عن حياة أُخرى ، وعالم آخر مختلف عن هذا العالم ، يكون فيه سعيداً ، أو على الأقلّ لا ينتاب حياته الألم ، ولا تعكّر صفو وجوده الصدمات وفقد الأعزة والأحبة ، فيه يأخذ المظلوم حقه من الظالم ، وتتحقق العدالة الّتي لا يمكن أن تتحقق في هذا العالم الذي تحكمه النفوس الشريرة ، كل ذلك دفعه بقوة إلى ذلك العالم الغيبي ، فيدرك أن تلك القدرة التي أوجدته من العدم ، هي وحدها التي تستطيع أن تحقّق له ذلك الكمال المنشود.

ثمّ إنّه لعلّ البراهين العقلية التي يقضي بها العقل من الأمور الفطرية ، لذا صح أن نقول أن كل ما قضى به العقل قضت به الفطرة أيضاً ، وبما أن

العقل يقطع بوجود الخالق ، من خلال البراهين العديدة ، فالفطرة تدين لذلك الخـــالق ، وتتوجه اليه بالعبادة ، بمقتضى هذا العنصر في وجوده.

وهكذا نستطيع أن نقول أيضاً : إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في هذه الـــدنيا ، بلا عقيدة تشدّه إلى ذلك العالم ، وحتى وإن أنكر ذلك ظاهراً في بعض الاحيان إلاّ أنّـــه قطعاً يعترف بوجودها في أعماق نفسه ، ولا يمكن أن يتجرّد عنها في يوم من الأيام ، لذا نرى أنّ القرآن الكريم يورد صفة هؤلاء المنكرين وحالهم من خلال قوله : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ** ﴾ [1].

فهؤلاء لو تُرِكوا وفطرتهم لقالوا : إنَّ الخالق لا يمكن أن يكون مادة عمياء ، والخلق لا يمكن أن يكون صدفةً أبداً ، ولكنهم طمسوا هذه الفطرة ، من خلال الظلم والعلـــوّ ، كما يصور ذلك القرآن بأجمل تعبير بقوله : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُـــسُهُمْ ظُلْمًـــا وَعُلُوًّا** ﴾ [2].

وكدليل على أنّ الدين أمر فطري ، أنّ البشرية ما انفكت يوماً عن اعتناق الدين ، أو عاشت بدونه على مرّ الدهور ، ومنذ أن كان الإنسان يعيش في الكهوف ، إلى أن بلغ درجة التحضّر والتمدّن والرُّقي ، وإلى أن تقوم الساعة.

نعم ، هناك مظاهر متعددة من التدين ، أي إن هناك أديان متعددة ، وذلك نـــاتج من اختلاف الناس ، وعدم دقّة تشخيصهم للخالق الحقيقي ، وهذا لا يضرّ بأصل فكـــرة الدين والتدين ، وإنما يضرّ في توجيه هذه الفكرة

---

(١) سورة العنكبوت : ٦١.

(٢) سورة النمل : / ١٤.

التوجيه الصحيح ، فمن الناس من يعبد الله تعالى ويعتقد بأنّه الخالق وحده ، ولا شريك له في الوجود ، وهو ربّ العالمين ، ومالك يوم الدين ، وهو دين التوحيد والإسلام ، وقد فسّرت بعض أحاديث أهل البيت عليهم السلام الفطرة بهذا المعنى.

فقد ورد في (أُصول الكافي) عن زرارة ، قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾. قال : « فطرهم جميعاً على التوحيد » [1].

إلاّ أنه قد وردت أيضاً أحاديث تؤكّد مصداقاً أعمّ وهو الإسلام ، الذي يدخل تحته التوحيد قطعاً ، قال الإمام الخميني تعليقا على الحديث المتقدّم: « وهنا لا بدَّ من معرفة أن الفطرة ، وإنْ فُسِّرتْ في هذا الحديث الشريف وغيره من الأحاديث بالتوحيد ، إلاّ أن هذا هو من قبيل المصداق ، أو التفسير بأشرف أجزاء الشيء ، كأكثر التفاسير الواردة من أهل بيت العصمة عليهم السلام ، وكلّ مرّة تفسّر بمصداق جديد ، بحسب مقتضى المناسبة ، فيحسب الجاهل أنّ هناك تعارضاً ، والدليل على أن المقام كذلك هو أنّ الآية الشريفة تعتبر « الدين » هو « فطرة الله » مع أنّ الدين يشمل التوحيد والمبادئ الأُخرى.

وفي صحيحة عبدالله بن سنان فُسّرت الفطرة على أنّها تعني « الإسلام » . وفي حسنة زرارة فُسّرت « بالمعرفة » . وفي الحديث المعروف : « كل مولود يولد على الفطرة » جاءت في قبال « التهوّد » و « التنصّر » و « التمجّس » كما أن الإمام الباقر عليه السلام في حسنة زرارة المذكورة فسّرها

---

(١) أُصول الكافي ٢ : / ٣ كتاب الإيمان والكفر ــ باب فطرة الخلق على التوحيد.

بالمعرفة . وعليه ، فالفطرة ليست مقصورة على التوحيد ، بل إن جميع المبادئ الحقّة هي من الأُمور الّتي فطر الله تعالى الإنسان عليها » [1].

وربما يتصوّر أنّ التوجّه إلى تلك القوة الغيبية ، من قبيل التوجه إلى الوهم والخيال ، ولكننا نقول : إنّه لا يمكن أن يكون توجّه الخلائق كلّها نحو تلك القوة الغيبية وليد الوهم والخيال ، وأنّ جميع البشر قد أخطأوا في هذا الأمر الواضح ؛ لأنّ الوهم والاشتباه لا يمكن أن يتصوّر في كلّ الإنسانية . ولماذا يكون الدين فقط من الوهم والخيال والاشتباه ، لماذا لا يكون الحبّ أيضاً وهماً وخيالاً ؟!. ولماذا لا تكون القيم والمبادئ والعدالة أيضاً وهماً وخيالاً.

لقد برهنا سابقاً على بطلان تلك النظريات الوضعية واخفاقها في تفسير ظاهرة التدين.

وما أجمل تلك القصة الّتي أوردها الله تعالى في القرآن ، لإثبات أنّ الدين أمر فطري ، وهي قصة تصور رحلة الإيمان التي خاضها إبراهيم الخليل عليه السلام ، ليُعرِّف قومه أنّ التوجّه إلى الله أمر فطري.

يذكر الشهيد المطهري في كتابه (الفطرة) هذه القصة قائلاً : إن قصة إبراهيم في القرآن تشير إلى هذه الطريقة في الاستدلال ، وإنّ من جوانب إعجاز القرآن أنّه اختار قصة إبراهيم هذه ، فإبراهيم عليه السلام كان من أقدم الأنبياء ، قبل المسيحية واليهودية ، والقصة قصة إبراهيم نفسه.

شاب يرى نجماً منيراً فيقول : « هذا ربي » ، وقد يقولها بلهجة استفهام ، أو تقرير ، ثمّ يرى أنّه أفل ، فيدرك أن ما يجده في نفسه من

---

(١) الأربعون حديثاً / الإمام الخميني : ١٧٦.

الربوبية والمقهورية ، وأنّه مسخّر ، هو موجود ـــ نفسه ـــ في ذلك النجم الذي ظنّه الله ! ثمّ يرى القمر أكبر حجماً ، وأسطع نوراً ، فيقول : « هذا ربي » وإذا به يرى بعد ذلـــك في القمر ما رآه في النجم ، وفي نفسه يرفضه كربّ. ثمّ يرى الشمس فيقول : « هذا ربي هذا أكبر » . ولكن هذا أيضاً أفل. فغسل يده من كلّ هذه الأُمور ، واستنتج اســـتنتاجاً بسيطاً ، وهو أن كلّ هذا الذي أراه متحرك ، ومسخّر ، وفي حالة دوران ، أي إنّ هناك من يحركه ويُسخّره ، فرأى العالم كلاً مربوباً واحداً.

يبين القرآن أنّ تفكير الإنسان الأوّل ، قادرٌ على الوصول إلى أنّ كل ما يراهُ حُكِمَ بحكم المربوبية ، وأنّ الربّ هو الذي لا يتّصف بما تتّصف به أشياء العالم ، عندئذ يقول : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [1] ».

وهكذا نرى إبراهيم عليه السلام يسبح في فكرٍ صافٍ ، مدفوعاً من قبل نفسه وفطرته ، باحثاً عن مصدر وجوده في هذا الكون الرحيب . لأنّ روح البحث ، والتطلع إلى ذلـــك الخالق الأزلي ، قد جُبلَ عليها الإنسان وعجنت بفطرته.

ولكن لا بدّ من التنويه بأن إبراهيم عليه السلام إنما كان يحاجج قومه من خـــلال هـــذا الاستدلال ويترل نفسه مترلة المستفهم حتى ينبّه عقول قومه إلى هذه الحقيقة ، وهي أنّه لا يوجد ربّ مدبّر لهذا العالم إلاّ الله تعالى الخالق لكلّ ما في الكون ، ويريد بهذه الطريقـــة إبطال ما كانوا يعتقدون من تأثير الكواكب في حياة الإنسان من خلال التـــدبير ، فـــلا تكون حينئذ

---

(١) الفطرة / المطهري : ١٥٠.

مستحقة للعبادة ، ولذا نرى أن الله تعالى بعد أن ذكر بأن إبراهيم وصل الى رؤية ملكوت السموات والأرض من خلال قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [1]. وبعد أن حذّر قومه من خلال مخاطبة عمه آزر الذي كان على عقيدة قومه من عبادة الأصنام والكواكب كما في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] وبعد هذا التحذير والبيان أراد إبراهيم عليه السلام أن يثبت لهؤلاء أن عبادة غير الله ليست صحيحة ، لأن كلّ ما عداه آفل زائل لا يملك لنفسه الثبوت والوجود ، فكيف يثبت لغيره ذلك ، فضلاً عن التدبير ومقام الربوبية ؟!

وهكذا اتخذ إبراهيم عليه السلام هذا الاسلوب البليغ لايصال الناس إلى التوحيد ، وهي تشبه طريقته في كسر الأصنام وإبقاء صنم واحد ، وإرجاع قومه اليه ، كما ورد في قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ *

---

(١) سورة الأنعام : ٦ / ٧٥.

(٢) سوره الأنعام : ٦ / ٧٤.

ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلاءِ يَنطِقُونَ *
قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) ، وكذلك محاججته لنمرود المعبّر عنها في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ.
قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ.
قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ.
فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢).

علّة توجّه البشر إلى الله

هل إنّ ما ذكرناه كافٍ في إثبات علّة توجّه البشر نحو الله ؟ أم لا يزال السؤال قائماً عن هذا التوجّه ، لأيّ سبب كان ، ولماذا يتّخذ الإنسان ديناً وعبادةً وطقوساً ؟

وفي معرض الجواب على مثل هذا السؤال ، الذي يتطلب الكثير من الكلام ، وصياغة براهين عقلية ونفسية معمّقة ومتعددة ، إلاّ أننا سوف نقتصر على اليسير منه طلباً للاختصار . وعليه نقول :

إن ذلك ناتج بسبب قانونين أساسيين في الفكر البشري ، أحدهما قانون السببية ، والآخر قانون الغائية.

أولاً ــ قانون السببية : ويتلخّص هذا القانون في أنّه لا يوجد شيء من

---

(١) سورة الأنبياء : ٢١ / ٥٦ ــ ٦٧.
(٢) سورة البقرة : ٢ / ٢٥٨.

الممكنات من دون علّة أوجدته ، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وذلك ناشيء من كون الممكن (أي الشيء الموجود) لا يحمل السبب الكافي لوجوده ، وكذا لا يستقلّ بإحداث شيء ، فكما أن الممكن لا يستطيع إيجاد نفسه ، فبطريق أولى لا يستطيع أن يوجد غيره ، بحسب القاعدة التي تقول : « فاقد الشيء لا يعطيه » . لذلك لا بد أن يقضي العقل الإنساني بوجود سبب وعلّة لوجوده.

وهذه العلّة لا بد أن تكون حكيمة ، ــ خلافاً لنظرية الصدفة ــ لما نرى من الاتساق والتنظيم الذي يكتنف الوجود برمّته ، من الذرّة إلى المجرّة ، فهذا الوجود المتناسق لا يمكن إيعاز علّته إلى أساس فوضوي عشوائي.

وكذا يقطع العقل البشرى ، أنّ هذه العلّة ذات حياة ، وعلم ، وقدرة ، وإرادة . ولو تخلّف ذلك ــ بمقتضى قاعدة العلية ــ لا نقطع الوجود وأصبح عدماً.

إذن فمدبّر هذا الوجود ، والمسيطر عليه والمؤثّر فيه ، هو الله تعالى ، لذلك لا بدّ للإنسان أن يدين بالاعتراف به ، والخضوع إلى أوامره ، التي جاءتنا عن طريق أنبيائه ، وهذا هو الدين.

سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن إثبات الصانع . فقال : « البعرة تدلُ على البعير ، والروثة تدلّ على الحمير ، وآثار القدم تدلّ على المسير ، فهيكل علوي بهذه اللطافة ، ومركز سفلي بهذه الكثافة ، لا يدلاّن على اللطيف الخبير ؟! » [1].

وقيل للرضا عليه السلام : ما الدليل على حدوث العالم ؟ فقال : « أنت لم تكن

---

(١) نوادر الأخبار / الفيض الكاشاني : ٦٥.

ثمّ كنت ، وقد علمت أنك لم تكوّن نفسك ، ولا كوّنك من هو مثلك » [1].

ثانياً ــ قانون الغائية : وموجبه أنّ كلّ نظام مركّب متناسق مستقرّ ، لا يمكن أن يحدث من غير قصد ، وأن كلّ قصد لا بدّ أن يهدف إلى غاية ، وأنّ هذه الغايــة إذا لم تحقّق إلاّ مطلباً جزئياً إضافياً منقطعاً ، تشوّقت النفس من ورائها إلى غاية أُخرى ، حتّــى تنتهي إلى غاية كلية ثابتة ، هي غاية الغايات ، وذلك لأنّ الإنسان ما انفكّ يومــاً عــن السؤال عن ثلاثة أشياء ، أرّقت مضجعه ، وحيّرت عقله ، وجعلته في فكر دائم وهــي : إنّه من أين أتى ؟ وإلى أين هو قاصد ؟ ولماذا خُلِق ؟

أترى أن هذا الإنسان يعيش في هذه الحياة بلا غاية ولا هدف يسير نحوه وإليــه ؟ أتراه قائماً على وجه يتخبّط في سير حياته ، لا يدري إلى أين يريد ، ولماذا وجد ، ولماذا يموت ؟!

إنّ من السخف أن يفكر الإنسان بأنّ وجوده عبث ؛ لأنّه بذلك يسلب إنــسانيته وفكره وحضارته ، وكلّ نتاج بشري في جميع الأصعدة ، فلا تستقيم حكمة الوجــود إلاّ بضرورة وجود غاية لهذا الوجود ، وهنا يبحث هذا الإنسان عن الغاية.

ولكن ربما أخطأ الإنسان في معرفة تلك الغاية ، فتصوّر أن الخالق هو ذلك الصنم الذي يرمز إلى قوة خفية ، أو أن الخالق هو الشمس أو القمر أو النجوم أو غيرها ، ولكن الذي ينبغي قوله : إن الإنسان لا يصل إلى هذه المراحل الخسيسة إلاّ بعد أن يعجــز ــــ بحكم أشياء عديدة ــ عن الوصول إلى الحقيقة ، لذلك نراه يتعلق بهذه الأشياء ليسدّ هذا الفراغ والحاجة النفسية

---

(١) نوادر الأخبار / الفيض الكاشاني : ٦٧.

والفكرية لديه.

أما الإنسان الحرّ والمتفتّح على الوجود بكل كيانه ، والذي تدبّر بعقله هذا الصنع العظيم ـــ كما أوردنا قصة إبراهيم عليه السلام ـــ فإنّه يقطع أن الغاية لا بدّ أن تكون متناسقة مع هذا الوجود العجيب ، وهذه الحكمة الكبيرة ، قال تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ** ... ﴾ [1].

وقال تعالى : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** ﴾ [2].

فلا يمكن أن يكون هذا الخالق صنماً يصنعه الإنسان بيديه ، أو يكون شيئاً من الأفلاك والنجوم ، أو الأشخاص ، أو المظاهر الطبيعية وغيرها ؛ لأنّ كل أُولئك محدود وموجود ومخلوق وناقص ، ولأن من الأُمور الفطرية التي فطِر الناس عليها هو النفور من النقص ، والاتجاه نحو الكمال ، لذلك فإنّ الإنسان ينفر من كلّ نقص وعيب.

فمبدأ الغائية هو من ثمار التوحيد ، ولا يمكن أن يستقيم إلاّ من خلاله ، وأنى لهذه المعبودات الناقصة من تحقيق الكمال لنفسها ، فضلاً عن إعطائه لغيرها ، على قاعدة : « أنّ فاقد الشيء لا يعطيه » ، وصدق الله تعالى إذْ يقول : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ** ﴾ [3].

---

(١) سورة فصلت : ٤١ / ٥٣.

(٢) سورة المؤمنون : ٢٣ / ١١٥ ـــ ١١٦.

(٣) سورة الحج : ٢٢ / ٧٣.

ملاحظتان وردّ

الملاحظة الأولى : هنا قد ترد علينا ملاحظة مفادها : أنّه إذا كان الدين الحق هو التوجه إلى الله وحده ، وهو دين الإسلام ، وأن مقتضى الفطرة يؤكّده ، ـــ أي إن الفطرة هي الإسلام ـــ ألا ترون أنّ هذا الكمّ الغفير من البشرية على مرور الأيام ، والتي قضت حياتها تعبد الأصنام والكواكب والمظاهر الطبيعية وحتّى الأشخاص ، يسيرون على غير الفطرة ، بينما ذكرتم بأن الدين بصورته الشمولية الكلية هو أمر فطري ، ألا يوجد تعارض ومنافاة ما بين كون الدين الحقّ هو الفطرة ، وكون مطلق الدين ـــ الذي فيه الشرك أيضاً ـــ من الفطرة أيضاً ؟!.

ويمكن أن نجيب على هذه الملاحظة ، من خلال البيان التالي :

لا ريب أن الذي بيناه سابقاً كان منصباً نحو نقطة جوهرية ، وهي : كون التوجه إلى الله ـــ القوة الأزلية ـــ الذي هو من الغيب الخارج عن نطاق الحسّ هو أمر فطري ، ولكن الإنسان تختلط عليه الأُمور ، ويدور في دوامة الأفكار ، فيضلّ طريقه في خضمّ البحث عن الله تعالى لأسباب كثيرة ؛ أهمها الغفلة ، والشبهة ، والفطرة لا تتنافى معهما . بل الذي ينافيهما في الواقع إنّما هو البغي والجحود ، الذي هو انحراف عن الصراط المستقيم ، وقد عبرّ القرآن عن هؤلاء الذين اختلط عليهم الأمر و لم يكن لهم مُوضّح أو مرشد ، بأنّهم مستضعفون لا يملكون حيلة ، قال تعالى : ﴿ **إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا**

غَفُورًا ﴾ [1].

أمّا الصنف الثاني من الناس ، وهم الذين أُوتوا البينات ، وبُعث إليهم النبيّون ، مبشرين ومنذرين ، ثمّ بعد كلّ ذلك يصرّون مستكبرين ومعاندين ، لا يؤمنون بالله ولا يوحدونه ، فأولئك هم البُغاة الذين قال الله فيهم : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ ... ﴾ [2]. وعليه فإنّ عبادة غير الله ليست منافية لفطرية الدين ، لأنها ناشئة عن الغفلة والشبهة.

وأمّا البغي فإنّه ينافي الفطرة ، وهو شذوذ عنها ، وهذا ليس غريباً ، حيث نرى أن بعض الناس قد شذّوا عن أُمور فطرية كثيرة ، أمثال العزوف عن الزواج أو راحة الجسد والمحبّة لبني الإنسان.

الملاحظة الثانية : ومفاد هذه الملاحظة هو : أنكم قلتم إنّ الإنسان بفطرته يتوجّه إلى مصدر غيبي وقوة أزلية تتجاوز الحسّ والعيان ، ولكننا نجد أن عبادة الأصنام ، أو الأفلاك ، أو ما شابه ذلك ، إنما هي عبادة أشياء محسوسة ، وحقائق مادية ، فكيف توفّقون بين كلامكم السابق وهذه الحقيقة ؟

وفي معرض الاجابة عن هذا السؤال ، نورد النصّ التالي : يقول الدكتور محمد عبدالله دراز : « فاعلم أنّ كلمات الباحثين في تقسيمات

---

(١) سورة النساء : ٤ / ٩٨ ــ ٩٩.

(٢) سورة البقرة : ٢ / ٢١٣.

المتدينين وعقلياتهم قد تطابقت على أن ليس هناك دين ، أياً كانت منزلته ، من الضلال والخرافة ، وَقَفَ عند ظاهر الحسّ ، واتخذ المادة المشاهدة معبودة لذاتها ، وأنّه ليس أحد من عبّاد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته في الحقيقة هياكلها الملموسة ، ولا رأى في مادتها من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم.

وكلّ أمرهم ، أنهم كانوا يزعمون أنّ هذه الأشياء مهبطاً لقوة غيبية ، أو رمزاً لسرٍّ غامض ، يستوجب منهم هذا التقديس البليغ ، فهي في نظرهم أشبه شيء بالتمائم والتعويذات ، التي يتفاءل أو يتبرك بها ، أو يستدفع بها شيء من الحسد أو السحر ، لا على أن لها خاصية ثابتة كامنة فيها كمون النار في الرماد ، أو أن لها قوة طبيعية كقوة المغناطيس ، بل على أن وراءها أو حولها روحاً عاقلاً مدبراً مستقلّ الارادة ، يستطيع أن يغير بمشيئته سير الأُمور ، ومجرى العادات ، وأن تلك المواد المشاهدة ما هي في اعتقادهم إلاّ مظهر ومطلع يطلّ منه الروح الخفي ، ويبارك من يتمسّح بتلك الهياكل التي اتخذها له مظهراً ومزاراً » [1].

والدليل على ما ذكره الدكتور دراز ، قوله تعالى : ﴿ **أَلا لله الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ** ... ﴾ [2].

فهؤلاء يتصورون أنهم لا يستطيعون أن يعبدوا الله تعالى بشكل مباشر ، لذلك جعلوا هذه الأشياء رمزاً أو واسطةً لعبادتهم ، معتقدين أن

---

(١) الدين / د . دراز : ٤٢.

(٢) سورة الزمر : / ٣.

هذه الأشياء هي المظهر الإلهي ، وأن الله تعالى يتجلّى فيها ، وهذه الفكرة تنطبق إلى حدّ ما مع معتقدات المسيحية ، أو الدروز والنصيرية ، حيث جعلت المسيحية عيسى عليه السلام هو المظهر الإلهي ، وجعلت الدروز الحاكم بأمر الله الفاطمي كذلك ، وجعلت النصيرية أمير المؤمنين عليه السلام كذلك.

وبهذا البيان يندفع الاشكال المذكور.

علة بعثة الأنبياء

من خطبة لأمير المؤمنين علي عليه السلام في علّة بعثة الأنبياء يقول فيها بعد ذكر آدم عليه السلام : « واصطفى سبحانه من ولده ــ أي من ولد آدم عليه السلام ــ أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة أيمانهم ، لمّا بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم ، فجهلوا حقّه ، واتخذوا الأنداد معه ، واجتالتهم الشياطين عن معرفته ، واقتطعتهم عن عبادته ، فبعث فيهم رسلهُ ، وواتر إليهم أنبياءه ، ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكّروهم منسيّ نعمته ، ويحتجوا عليهم بالتبليغ ، ويثيروا لهم دفائن العقول ... » [1].

ما أروع هذا البيان الذي يسطّره سيد البلغاء ، وإمام الفصحاء ، وباب مدينة العلم ، في علّة بعث الأنبياء ، فإنّه عليه أفضل الصلاة والسلام يحدّد تلك العلل والأهداف بالأُمور التالية :

الأوّل : « لما بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم » : ذلك العهد الذي أخذ من بني آدم في عالم الذرّ ــ كما يقول المفسرون ــ والميثاق الذي قطعوه على أنفسهم ، ليكون حجّةً عليهم ، كما أخبر عن ذلك سبحانه بقوله : ﴿ وَإِذْ

---

(١) نهج البلاغة : الخطبة الأولى.

﴿ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ (١).

فانظر إلى المقطع الأخير من الآية الكريمة ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ ففي سبيل أن ينتفي العذر وتزول الغفلة ، فإنّ الله تعالى يحتجّ على خلقه بالعهد والشهادة التي أخذها منهم هناك.

ويمكن لله سبحانه أن يكتفي بهذا العهد والميثاق ، ولا يرسل لهم رسلاً أو أنبياء يذكّرونهم ويرشدونهم ، ولكن الله الرحيم الشفيق يعلم بأنّ الإنسان ظلوم جهول ، يتعامل مع المحسوسات ، ويستأنس بها أكثر من تعامله واستئناسه بالغيبيات ، وإلاّ فإنّ كلّ إنسان يحسّ من نفسه ، أنّه متوجّه إلى الله تعالى قهراً ، كما بينا ذلك سابقاً بمقتضى الفطرة.

وعليه فإنّه الله سبحانه لّما رأى أنّ خلقه بدّلوا ذلك العهد المأخوذ عليهم وما ترتّب على ذلك من مصائب وفجائع جعلتهم يهبطون من عالمهم العلوي ، ويتنزّلون من عالمهم القدسي ، ويخرجون من حدود الإنسانية إلى حدّ البهيمية ، فنسوا ذلك وغيّروه « فجهلوا حقه » ، ذلك الحق الرباني ، وهو كون الإنسان شاكراً لله تعالى مؤمناً به ، فعبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرّهم ، من الأوثان والأصنام وغيرها ، كما عبّر عن ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « واتخذوا الأنداد معه ، واجتالتهم الشياطين عن معرفته ».

إذن معرفة البشر بخالقهم موجودة وثابتة لا ريب فيها ، وهي الفطرة ، وإنما هناك الشياطين العدوّة لبني الإنسان ، والتي تريد أن توقعهم في

---

(١) سورة الأعراف : ٧ / ١٧٢.

المهالك ، من خلال الإغواء والتزيين والتبديل ، كما يحكي القرآن تلك المحاورة بين الله تعالى وبين إبليس اللعين ، في قصة آدم عليه السلام .

وكان من نتائج ذلك ، أنّ عباد الله اتخذوا من دون الله أصناماً آلهةً ، فضلّوا عليها عاكفين ، فعبدوها من دون الله ، وخرجوا بذلك عن سنّة الفطرة ، وغيّروا ذلك العهد الذي أُخِذَ منهم ، وقطعوا تلك الصلة التي ربطتهم به تعالى.

لذلك نراه سبحانه يحتجّ عليهم بأبلغ احتجاج ، من خلال قوله سبحانه : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [1].

من أجل ذلك كلّه أرسل الله تعالى الأنبياء والمرسلين ، رحمةً بالعباد ، ليخرجهم من هذه العبادة المنحرفة ، إلى عبادة الله العزيز الجبار ، تفضلاً منه ورحمة.

الثاني : « ليستأدوهم ميثاق فطرته » : تلك الفطرة التي فطر الناس عليها ، وهي فطرة عبادة الله الواحد الأحد ، التي ضيعها الناس ، لذلك يقول الله تعالى في ذيل الآية الكريمة : ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ ، فهذا التوحيد والعبادة من الخلقة التي جُبلتْ عليها النفس ، ولا تبديل لهذه الخلقة ، وهي ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ دين الإسلام ، ولكنّ المصيبة ﴿ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ هذه الحقيقة ، وهذا هو الواقع ، لأنّهم جاهلون وغافلون ، لأن الشياطين زينت لهم الباطل ، وصورته بصورة الحق ، فأضلتهم عن السبيل ، بعدما كانوا على الهدى والصلاح.

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٢٨.

انظر إلى قول الإمام عليه السلام « ليستأدوهم ميثاق فطرته » فالأنبياء لم يأتوا بشيءٍ جديدٍ عن الفطرة ، وكلما في الأمر أنهم أثاروا أشياء موجودةً فعلاً ، فهنا وظيفة الأنبياء عليهم السلام الإثارة ، وهي الوظيفة الثانية لهم.

جاء في (أُصول الكافي) عن عبدالله بن سنان ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزَّ وجلّ ﴿ فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [1] ما تلك الفطرة ؟ قال : « هي الإسلام ، فطرهم الله حيث أخذ ميثاقهم على التوحيد. قال : ألستُ بربكم ؟ وفيه المؤمن والكافر » [2].

وعن زرارة ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألته عن قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ [3] قال : « الحنيفية هي الفطرة التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » قال : « فطرهم على المعرفة به ».

وفي حديث آخر له قال عليه السلام : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كل مولود يولد على الفطرة ، يعني المعرفة بأن الله عزَّ وجلَّ خالقه ، وكذلك قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [4].

وهكذا نرى أن الروايات طافحة في هذا المعنى ، ولولا مخافة الإطالة ، لكان لنا مع هذه الروايات وقفة ، نستوحي منها معاني عظيمة.

الثالث : « ويذكّروهم منسي نعمته » : وهذه هي الوظيفة الثالثة للأنبياء عليهم السلام ، فإن هذا النصّ يؤكّد بأنّ الوظيفة النبوية هي التذكير بالنعمة

---

(١) سورة الروم : ٣٠ / ٣٠.

(٢) أُصول الكافي ٢ : / ٢ ، كتاب الإيمان والكفر ـــ باب فطرة الخلق على التوحيد.

(٣) سورة الحج : ٢٢ / ٣١.

(٤) أُصول الكافي ٢ : / ٢ ، كتاب الإيمان والكفر ـــ باب فطرة الخلق على التوحيد.

الالهية المنسية من قبل الإنسان الغافل الجاهل ، تلك النعمة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى ، قال تعالى : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (١).

فهذا الإنسان يتمادى في الطغيان ، ويكفر بالله المنعم ، بدل أن يشكره ويخضع له بالعبودية ، ويكون ظالماً بأن يتخذ لربه شركاء وأنداداً ، قال سبحانه على لسان لقمان عليه السلام : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢).

فالأنبياء يريدون أن ينقذوا هؤلاء الناس ، الذين لا يدرون بأن مآلهم ـــ والحالة هذه ـــ سيكون إلى النار ، كما أخبر عزَّوجلَّ عن ذلك . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (٣).

الرابع : « ويحتجوا عليهم بالتبليغ ، ويثيروا لهم دفائن العقول » : وهذا الهدف يدلّ على وجود الترابط المتين بين عملية التبليغ التي يقوم بها الأنبياء ، « صلوات الله عليهم » ، وبين إثارة الكنوز المدفونة في نفوس البشر ، فالتبليغ لا يكون إلاّ بعد أن يكون هناك وعي كامل لحقيقته ، وبذلك تقام الحجة ويقطع البرهان كلّ عذر ، ويقصد الإمام عليه السلام بالكنوز هنا ، تلك المعارف والقدرات التي منحها الله عزَّ وجلَّ للإنسان ، ومن أسمى

---

(١) سورة إبراهيم : ١٤ / ٣٤.

(٢) سورة لقمان : ٣١ / ١٣.

(٣) سورة إبراهيم : ١٤ / ٢٨ ـ ٣٠.

تلك المعارف هي معرفته سبحانه ، الّتي لو استغلها الناس لوصلوا إلى أرقى درجات الكمال ، لذلك رأينا أنّ بعض الروايات ، فسّرت الفطرة بالمعرفة ، فدعوة الأنبياء ترتكز على إثارة تلك الكنوز ، والاستفادة من هذه القدرات.

إذن هناك وظيفة التبليغ من أجل الاحتجاج ، لكي لا يكون عُذرٌ لأيّ أحد ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [1]. وهناك وظيفة أُخرى ، وهي إثارة المعارف والكنوز التي تحقّق لهم الكمال المنشود.

ومن هذا الاستعراض القصير عرفنا أهم وظائف الأنبياء التي حددها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، غير أنّ هذا الكلام لا يعني أن وظائف الأنبياء مقتصرة على هذا القدر ، بل هو من باب البيان لأوضح المصاديق لا غير ، وإلاّ فإنّ هناك وظائف كثيرة وكبيرة للأنبياء ، وعلى حسب درجتهم ، كما هو محرّر في محلّه.

خلاصة البحث

١ ــ إنّ الدين له أصالة في الوجود الإنساني ، منذ وطأ هذه الأرض وإلى أن تقوم الساعة ، كما أثبت ذلك علماء النفس والأنثروبولوجيا.

٢ ــ إنّ النظريات الغربية والشرقية التي تعلل وجود الدين والتدين عند الإنسان لأَسباب مثل الخوف ، أو الجهل ، أو غيرها ، لا تقوم على أيّ أساس علمي ، وهي باطلة ، كما أثبتنا ذلك في طيات البحث.

---

(١) سورة الإسراء : ١٧ / ١٥.

٣ ــ إنّ منشأ الدين أمرٌ فطري ، جُبلت عليه النفس البشرية ، ولذلك نــرى أن البشر ، ومنذ أقدم العصور يتوجهون إلى الله سبحانه بالعبادة .

٤ ــ إنّ البشر قد انحرفوا عن هدي الفطرة وسبيل الهــدى ، وعبــدوا الأوثــان والأصنام والموجودات الكونية ، بسبب جهلهم وغفلتهم ، لذلك بعث الله عزَّ وجلَّ لهــم الأنبياء والمرسلين لينقذوهم من الشرك والضلال وليهدوهم إلى الصراط المستقيم.

٥ ــ إن معنى قوله تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ هو الإسلام ، حيث هو دين الفطرة.

والحمد لله رب العالمين